(١)

رحلة إلى جزيرة العرب

١٣٧٠ هـ : ١٩٥١ م

- ليل الجزيرة
- الفجر الصادق
- وراء الأسوار
- صور من الجزيرة
  - المغتربات
  - جارة النبي
  - هاجر
  - آمنة

فى عطلة منتصف العام الجامعى ١٩٥١ م ١٣٧٠ هـ دعانا الشوق إلى أرض المبعث ، فأجمعنا أمرنا على أن نسعى إليها معتمرين زائرين .

وحرص كثير من الأساتذة والطلاب على الاشتراك فى الرحلة ، لكن المبلغ الذى حُدد لها – خمسة وأربعين جنيها – حال دون كثير منهم ، فلم يبق منا غير عشرة من كليات : الآداب والطب والزراعة والتجارة ، بجامعة القاهرة ، فيهم ثلاثة من الأساتذة .

ووُضع برنامج الرحلة فى حدود ما تسمح به ميزانيتها المتواضعة ، فلم نطمع فى أكثر من قضاء العمرة وزيارة مثوى الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام .

وكان بودِّنا – نحن الذين درسنا علوم العربية والإسلام – لو اتسع المجال فامتدت الرحلة إلى ربوع الجزيرة التى عشنا العمر كله ندرس لغتها ونشدو بأشعارها ونتمثل بواديها ودروبها ومنازلها ، ونصحب شعراءها ورُجَّازها وصعاليكها ، من وراء القرون ذات العدد . . .

لكن قصور وسائلنا وزادِنا ، أبقى هذه الأمنية بعيدة المنال . . حتى شاء الله فزار مصرَ « صاحب السمو الأمير فيصل » وتفضَّل فوضع الرحلة تحت رعايته الكريمة ، بعد أن استقبل وفداً منا ، أستاذنا أمين الخولى ، والدكتور محمد عبد السلام العبادى ، والدكتور محمود المنجورى .

وأوفد سموه ، السيد فؤاد شاكر لتوديعنا بمطار القاهرة ، حين بدأنا منه رحلتنا صبح يوم الأحد ، الرابع من شهر فبراير .

حملتنا طائرة سعودية إلى جدة لنجد فى استقبالنا فوجاً من كرام الرسميين والعلماء والأدباء ، ولنعلم أننا ضيوف جلالة عاهل الجزيرة « الملك عبد العزيز آل سعود » – طيب الله ثراه –

فى أصيل يوم وصولنا ، سعينا إلى مكة محرمين ، فقضينا العمرة وصلينا العشاء فى المسجد الحرام ، ثم نزلنا فى دار الضيافة حيث أمضينا أمسية حافلة مع المكيين الكرام ، وفى الصبح زرنا معالم أمِّ القرى وطفنا بمشاهدها . ثم عدنا إلى جدة حيث دعينا إلى الغداء بالقصر الملكى فى ضيافة سمو الأمير الشاعر « عبد الله الفيصل » .

وطاب لنا مجلسه ، وطاب معه الحوار الخصب الحىّ فى قضايا الشعر العربى والفكر الإسلامى . وذكرنا به شعراءنا الأمراء : من امرئ القيس وعُلية بنت المهدى وعبد الله بن

المعتز وأبى فراس الحمدانى ، إلى ولادة بنت المستكفى والمعتمد بن عباد . . هؤلاء الذين أثروا تراثنا الأدبى بعطاء شاعريتهم الملهمة ورؤى وجدانهم المرهف ، ولطَّفوا من وطأة إحساسنا بمهانة القولة الشائعة الذائعة : « الشعر تجارة العرب » .

* * *

قال سمو الأمير يودّعنا :

« أنتم فى داركم وبين أهليكم . لا نضع لكم برنامج الرحلة . بل حسبكم أن تختاروا لها ما شئتم ، وعلينا التنفيذ » .

من ثَمَّ ، رُفِعت الحدود التى كانت تقيد خُطانا فلا تأذن لنا بالتحرك فيما يجاوز منطقة : جدة ، والحرمين . .

وفى دار « السيد الشيخ محمد سرور الصبان » – رحمه الله – رسمنا برنامج رحلتنا فى حرية وغبطة : نطير إلى الظهران ، ومنها نوغل فى نجد والأحساء ، ونبلغ القطيف والبحرين ، ثم نتجه إلى الرياض فنحيى جلالة الملك العاهل ، ومن هناك نأخذ طريقنا الجوى إلى المدينة المنورة لنسعد بزيارة حبيبنا المصطفى عليه الصلاة والسلام . .

* * *

رحلتنا إلى الظهرام كانت حافلة مثيرة . وفيها أقمنا سبعة أيام نتجول فى المنطقة ونسمع قصة الزيت .

وقضينا يوماً فى جولة بحرية بالخليج العربى ، بقارب بخارى أعدته لنا إمارة الدمام ، وزودته بطيب الطعام والشراب ، ووسائل الراحة .

ويوماً فى « القطيف » على ساحل الخليج ، مع صحب كرام من الأعيان والشعراء .

وبقِى من أسبوعنا هناك خمسة أيام لزيارة دور التعليم ، وآبار الزيت ومعامله ، وميناء الدمام . متنقلين خلال ذلك من غداء فى بستان السيد الوزير الشيخ عبد الله السليمان ، إلى عشاء فى قصر الإمارة ، ضيوفاً على سمو الأمير الشيخ عبد المحسن بن جلوى ، إلى حفلات سمر واستقبال فى دور كرام القوم بالدمام والظهران والخُبَر .

وسعدت بلقاء السيدة الكريمة حرم سمو الأمير عبد المحسن التى استقبلتنى لترحب فى شخصى بسيدات مصر أم الدنيا . وقد شدّتنى إليها بلطفها وإيناسها ، وجاذبية أصالتها البدوية ، وملاحتها النقية التى لم تشوهها الأصباغ والألوان ، وبساطتها الفطرية التى لم يفسدها زيف وتكلف .

وفى الرياض كان لقاؤنا بالعاهل الكبير ، جلالة الملك عبد العزيز . وفى مجلسه بالمربّع ، لم يكن لجلالته حديث إلا عن محنة الأمة بعار إسرائيل . وقد مَدَّ بصره إلى الأفق الشمالى يستوعب أبعاد النكبة فى رؤية ثاقبة . ويحس بحَدْس فراسته الملهَمة ، نذرَ الإعصار العتىّ يوشك أن يوغل فى صميم وجودنا وينتهك أقدس حرماتنا . .

وتهدّج صوت العاهل الشيخ ، إذ يتساءل فى حيرة وأسًى :

متى تحتشد الأمة للجهاد ، عسى أن يبذل حياته وأبناءه فدية لشرف أمتنا ؟

وأراه لم يملك دمعه ، وهو يتمنى على الله تعالى ، لو أنه أعفاه بالموت من شهود الكارثة . ورحمه من وطأة المعاناة الباهظة لإصر التخاذل وذل العار .

ودعنا جلالة العاهل – رحمه الله – وفى النفس همٌّ وشجن ، لم يلطف منهما ما حظينا به من كرم الوفادة وأنس اللقاء ، كان لى معهما أن تلطف جلالته فدعانى « أميرة الصحراء » . .

حتى شددنا الرحال إلى المدينة المنورة ، فما حوَّمت طائرتنا فوق أرضها الطيبة ، حتى اشرأبت لها أرواحنا الظامئة وقلوبنا المشتاقة ، وانجابت عن أفقنا الظلال والغيوم ونحن نستقبل مثوى الحبيب ، ونطوف بالربوع العاطرة بأنفاسه ، ونسير حيث سارت خُطاه . .

* * *

وعدنا إلى مصر نحمل أجمل ذكرى لأطيب رحلة وأكرم ضيافة .

ومضت الأيام ومشاهد الجزيرة تتراءى لى على البعد والقرب ، فتغرينى بأن أحدّث قومى عن أرض المعجزات التى ينتمون إليها عقيدة ولساناً ، ويستقبلون المسجد الحرام فيها ، حيثما كانوا . .

وسلام عليها : داراً وأهلاً . .

ليل الجزيرة

وآية البيان

أَوْقِدْ فإن الليلَ ليلٌ قَرٌّ
والريحُ ياغلامُ ريح صِرٌّ
عَلَّ يرى نارَك من يَمُرٌّ
إن جَلَبَتْ ضيفاً فأنت حُرٌّ

حاتم الطائى

مرّت على صحاريها الحِقَبُ والدهور وهى قاحلة مجدبة ، رهيبة مرهوبة . يحوم حولها الخيال ثم يرتدّ عنها فزعاً مذعوراً ، لا يكاد يميز بين صفير الرياح فيها وعواء الوحوش وعزيف الجان .

وتتراءى الأشباح للسارين فيها بليلٍ ، فيجسمها الوهم لا يكاد يفرق فى الدجى بين كثبان الرمال وقطع الظلام ، وتلك الأشباح التى تسرح طليقة فى ليل الفلاة .

وربما تمثلت لهم الجن وقد تلبّست شخوصاً آدمية فى شياطين البشر ، أو فى وحوش الفلاة .

وإذ غاب عنهم تفسير ما يلقون فى ليل الصحراء من غريب الظواهر ومباغتات الأخطار ، ردُّوها إلى هذه الكائنات الخفية التى تترصد لهم بين كثبان الظلمة وسُودِ الصخور . وقد تخرج لهم من أحشاء الأرض فى صورة ثعبان أرقش أو حية رقطاء أو أرنب وحشى .

وامتلأت الجزيرة بأساطير تحكى ما يلقاه الضاربون فى نجد والدهناء والربع الخالى ، من أفاعيل الجن وألاعيب الغيلان ، فزادت من رهبة القفر الموحش ، يتّقيه السارون إلا أن تدفعهم ضرورات العيش إلى ركوب مخاطره وأهواله . حيث يتلمسون مواضع أقدامهم على حذر ، وهم يستعيذون من شر ، فيما يقول راجزهم :

قد استعذنا بعظيم الوادى
من شرّ ما فيه من العَوادى

وكان من راكبى القفر شعراء ، حفظ ديوان الشعر الجاهلى لبعضهم مغامرات ومواقف مع الجن ، من اختراع الخيال أو من أضغاث الأحلام وتجسيم الوهم ، كقول شاعر منهم يصف جنًّا نزلوا به حين أوقد ناره فى ليل القفر :

أَتوا نارِى فقلتُ : منون ؟ قالوا سراةُ الجنِّ ، قلتُ عِمُوا ظلاما
وقلت : إلى الطعام ، فقال منهم زعيم : نحسدُ الإنسَ الطعاما
لقد فُضِّلتُمُ بالأكل عنا ولكنْ ذاك يُعْقِبُكم سقاما

وقال الشاعر الصعلوك « تأبط شرًّا »[1] يفاخر بمغامراته مع الجن :

أنا الذى نكح الغيلانَ فى بلَدٍ ما طَلَّ فيه سِمَاكِيٌّ ولا جادا

ومنهم من زعم أنه اتخذ له فى القفر مطايا من الجن ، مشخصة فى أرانب وحشية :

وكلُّ المطايا قد ركبنا فلم نجد ألذَّ وأشهى من ركوب الأرانب

وكذلك زعموا أن الجن ناحت على قبرِ « حاتم الطائى[2] » لِمَا كان فى حياته يوقد من نار القِرَى فى ليل الفلاة ، فيؤنس الضاربين فى مجاهلها ويجدون لديها ملاذاً وقرى ، وحفظوا له قوله لغلامه :

أوْقِدْ فإن الليل ليلٌ قَرُّ
والريحُ ياغلامُ ريحٌ صِرُّ
عَلَّ يرى نارَك مَن يَمرُّ
إن جَلَبَتْ ضَيفاً فأنت حرُّ

فيُروى عن « أبى عبيدة ، معمر بن المثنى[3] » عن رجل من بنى طيئ ، قال :

[رأيت قبر حاتم الطائى بِبَقَّةَ ، – موضع بديار بنى طيئ – وإذا قُدورٌ عظيمة من أحجار مُكفأَات ناحيةَ القبر ، وهى التى كان حاتم يطعم فيها الناس . وعن يمين قبره أربع جُوارٍ من حجارة ، وعن يساره كذلك . ولهن شعورٌ منشورة كالنائحات عليه ، لم يُر مِثْلُ بياضِ أجسامهن وجمال وجوههن ؛ مَثّلتهن الجنُّ على قبره : فإذا هدأت العيون ارتفعت أصوات الجن بالنياحة عليه إلى طلوع الفجر ، فحينئذ يَسْكُنَّ . .

قال : وربما مَرَّ المارُّ فيراهن فيميل إليهن ، فإذا قاربهن رآهن أحجاراً] .

وليس هذا بعجيب من تصورات الخيال وتهاويل الرؤى ، وقد تسمع مثله فى مناطق من الغرب الحديث[4] وقدْ راجت هذه الحكايات وأمثالها فى أنحاء الجزيرة ، فلم ينج من التأثر

(١) ثابت بن جابر ، انظره فى (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، و (المفضليات) للضبى .

(٢) حاتم بن عبد الله بن سعد الطائى ، الشاعر الجواد المشهور فى الجاهلية بالكرم والسخاء . انظره فى : (الشعر والشعراء) .

(٣) من أئمة علماء العربية فى القرن الثانى للهجرة انظره فى (نزهة الألبا) و (أخبار النحويين) .

(٤) أذكر أنى شهدت فى جبال النمسا العليا ، صخرة من عجيب نحت الطبيعة ، لا يشك الرائى من بعيد أنها جسم امرأة نائمة . وسمعت القوم هناك يحكون لى ، فى ليلة ساهرة لشهود القمر الصناعى ، أسطورة حب نسجها الخيال لهذه (الأميرة النائمة) .

بها شاعر شيخ كالنابغة الذبيانى ، وهو يعيش فى بلاط النعمان بن المنذر بإمارة الحيرة . كالذى قال فى شكواه من ذوى الضغن عليه ، فى قصيدته الرائية التى ذكر فيها قصة الحية « ذات الصفا » وما لقيت من عذر خليلٍ لها من الإنس[١] :

* * *

فى ذاكرة الزمن ، كانت تعيش مرويات عن حضارات الأقوام وممالك من العرب البائدة ، قص علينا القرآن الكريم من خبرهم ما هو موضع عبرة ، مثل :

● **عاد** : « إرم ذات العماد . التى لم يُخلق مثلُها فى البلاد » .

كان منزلهم بالأحقاف ، بعث الله فيهم أخاهم هودا رسولاً ونذيراً ، فكذبوه وعصوا واستكبروا فى الأرض بغير الحق . فأرسل عليهم الريح العقيم « تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يُرَى إلا مساكنُهم » .

● « **وثمود** الذين جابوا الصخر بالوادِ » دعاهم نبيهم صالح إلى عبادة الله فكذبوه ، « وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأنْ لم يَغْنَوا فيها »[٢] .

● **وسبأ** الذين كان لهم فى مسكنهم آية : « جنتان عن يمين وشمال » وقد ازدهرت الحضارة فى مملكة سبأ بالجنوب ، حتى غرتهم الدنيا وأفسدهم البطر والترف ، واجتاحهم سيل العَرِم وبُدِّلوا بجنتيهم « جنتين ذواتى أُكُلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشىء من سِدْرٍ قليل »[٣] .

ونزلت قبائل فى نجران والجوف اليمنى وحضرموت وساحل عمان . ونزحت أخرى ، من عرب الجنوب القحطانية ، فى هجرات جماعية قديمة فاستقرت فى منازل عَمَرتها ، ومنها ما خالط قبائل من عرب الشمال كقبيلة كندة التى ظهرت على بنى أسد ، وجرهم التى نزلت بمكة وأصهر إليها إسماعيل ، جد العرب العدنانية .

ونزل بنو قيلةَ ، ولَدُ عمرو بن عامر : آخر ملوك سبأ ، فى شمال الحجاز فعمروا يثرب

---

(١) مطلع القصيدة :

ألا أبلغا ذبيان عنى رسالة فقد أصبحت عن منهج الحق جائره

انظرها فى (ديوانه) وفى (العقد الثمين) .

(٢) انظر الآيات فى عاد وثمود ، فى سور :

الفجر ، هود ، الأحقاف ، القمر ، الحاقة ، النمل ، الذاريات ، الأعراف ، فصلت ، إبراهيم ، النجم ، الحج .

وما بين الأقواس هنا ، هو من نص كلمات الذكر الحكيم .

(٣) انظر الآيات فى سورتى (سبأ ، والنمل) .

وهم الأوس والخزرج[١] .

ونزل إخوتهم « بنو جفنة بن غسان » بأرض الشام ، فأسسوا بها إمارتهم العربية على حدود الروم . كما نزل المناذرة بالحيرة ، وقامت إمارتهم على حدود الفرس .

وفى الوادى الأجرد ، بين جبال الحجاز الصخرية ، كانت « مكة » أم القرى العربية ، معبداً لله تعالى من قديم الحقب ، ثم آلت إلى مركز للعبادة الوثنية : دين القبائل العربية فى شتى أنحاء الجزيرة .

وقد طال عليها الليل ، ولم تستطع طقوس الوثنية على كثافتها وغلظها ، أن تحجب سَنَا البيت العتيق ، أقدم بيتٍ عُبِدَ فيه اللهُ على الأرض ، ولا أن تغض من حرمته التى لم يَزِدْها كرُّ الغداة ومرُّ العشىّ إلا عراقة ورسوخاً .

كما لم يستطع الضجيج الصاخب فى مواسم الحج إلى مكة وملتقى القبائل فى أسواقها بعُكاظ والمِجَنَّة وذى المجاز ، أن يطوى ذكريات التاريخ الدينى لأم القرى ، من يوم أن رفع « إبراهيم القواعدَ من البيت وإسماعيل » وطهَّراه للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود .

وتتابعت الحقب والدهور ، وهذا البيت العتيق حَرَمٌ آمن ، ومثابة حج القبائل وموضع تقديسها . . .

* * *

وبقيت البِيدُ وراء هذه الأطراف المعمورة والمنازل الآهلة والحواضر من القرى ، فى عزلتها الرهيبة المرهوبة ، لا تجتازها القوافل فى رحلاتها للحج والتجارة ، إلا بحماية من العرب البدو سادة الصحراء ، ومع أدِلاء منهم خبراء بمجاهل الدروب وعمياء المسالك فى القفر الموحش .

وظل للصحراء سلطانُها المادى والمعنوى على الحضريين ، تفرض عليهم تفسيرها للظواهر والغوائل ، وتسيطر على تصوراتهم بخيالها الطلق ورؤيتها للكون والحياة ، وتشحن وجدانهم بما لديها من أسرار القفر .

وكما ردَّ الضاربون بالفلاة غوائل الطريق إلى ما جسَّمه الوهم من أفاعيل الغيلان ، شقّ عليهم وعلى الحضر فى القرى والإمارات ، تعليل الإلهام الشعرى وفراسة الكهان ودهاء السحرة ، فردُّوها إلى أصحاب من الجن يتصل الكاهن والساحر بها فى عالمها السفلى

(١) انظر تفصيل ذلك كله فى : كتاب (تاريخ مكة) للأزرقى وكتاب (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) للسمهودى .

الخنى ، وإلى توابع منها تأتى الشعراء من وادى عبقر ، فتلقى إليهم عبقرىَّ النغم وروائع القصيد . قال راجزهم :

إنى وإن كنتُ صغيرَ السِّنِّ
وكان فى العيْنِ نُبُوٌّ عنى
فإن شيطانى أميرُ الجنِّ
يذهب بى فى الشعر كلَّ فَنّ

وقال الشاعر الخزرجى المخضرم « حسان بن ثابت » من شعر جاهليته بيثرب :

وَلى صاحبٌ من بنى الشَّيصبا نِ فطوراً أقول وطوراً هُوَهْ

* * *

وخلفوا رؤاهم وأحلامهم وهواجسهم فى وجدان الجزيرة ، ميراثاً يتلقاه خَلَفٌ عن سلف ، وتراثاً يتناقله الرواة جيلا بعد جيل ، لم يُفلت من تأثيره شعراء إسلاميون من بدو وحضر ، وفيهم مولدون وُلِدُوا وعاشوا فى الأقطار التى فتحها الإسلام ، فى بيئات بعيدة أقصى البعد عن بوادى الجزيرة وفلواتها .

قال « ذو الرمة » الشاعر الإسلامى البدوى [1] :

ورملٍ لعَزْفِ الجنِّ فى عُقداته هريرٌ كتضرابِ المغنين بالطبلِ

وقال « جرانُ العود النميرى » [2] يصف إحدى لياليه :

حَمَلْنَ جران العود حتى وضَعْنَه بعلياءَ فى أرجائها الجنُّ تعزف
وقلن تمتعْ ليلةَ النأىِ هذه فإنك مرجوم غداً أو مُسَيَّفُ

وقال « أبو النجم » [3] مرتجزاً :

إنى وكلَّ شاعر من البشرْ
شيطانُه أنثى وشيطانى ذكرْ

وقد أضافت هذه الأجيال الإسلامية إلى تراث الشعر الجاهلى من شطحات خيالها وتصورات وهمها ، ما وصل إلى القرن الرابع الهجرى ، فجمع منه « المرزبانى » كتابه فى

---

(١) غيلان بن عقبة . ديوانه مطبوع فى (المثنى) ببغداد .

(٢) عامر بن الحارث النميرى . ديوانه مطبوع فى دار الكتب المصرية .

(٣) الفضل بن قدامة ، من أشهر الرجاز فى العصر الأموى . انظره فى : (الشعر والشعراء ، ومعجم الشعراء) .

(أشعار الجن)[١].

وفى القرن الخامس الهجرى ، كان الشاعر الأندلسى «ابن شُهيد» فى أقصى المغرب ، يصوغ من رؤاه مباراة شعرية ملهمة بين تابعه وتوابع مقدَّمى الشعراء وزوابع مشهورى الكُتاب ، وقد أفحمهم جميعاً[٢].

حين كان «أبو العلاء المعرى» فى محبسه بمعرة النعمان بالمشرق ، يملى فى (رسالة الغفران) ما تمثله من مشهد لقاء بشاعر من الجنّ المؤمنين ، وينطق على لسانه بقصيدتين مطولتين ، فيهما عجائب وغرائب مما رسب فى عقلية بيئته من تصوراتٍ لعالم الجن[٣].

* * *

لكن بادية الجزيرة ، هى التى أعطت الأجيال من العرب ، كذلك ، سليقتها اللغوية النقية ، وبيانهَا الذى طوعته للتعبير عن وجدانها ورؤاها ومنطقها.

أعطتنا العربية الفصحى ، بعد أن صقَلَتْها على المدى الطويل بحسها المرهف ، فأوصلَتْها إلى أواخر الجاهلية : قد أهملت الحوشى والغريب والثقيل ، وما تنافر من حروف اللفظ أو كلمات الجملة . وهذَّبت صيَغها بالإعلال والإبدال والقَلب والإدغام والحذف ، واستقرت قواعد مطردة للتأنيث والتذكير ، وللإفراد والتثنية والجمع ، والتعريف والتنكير . وتصرفت فى المادة اللغوية لملاحظَ من فروق الدلالات ، وتصرفت فى الفعل لضبط زمن وقوع الحدث ، وتمييز المعلوم من المجهول . واستخدمت الضمائر وأسماء الإشارات والأسماء الموصولة وحروف المعانى ، ببالغ الدقة والإحكام . كما حكمت المعانى بصيغ المشتقات ونسق الألفاظ فى الجمل ، وسياق العبارة وعلامات الإعراب .

وتوسعت فى المجاز لتنمو وتلبى حاجات الحياة ، فنقلت الألفاظ من استعمالها الحسى إلى المعنوى ، وتطورت أساليبها من قديم ، فخرجت عن معانيها فى أُصل الاستعمال اللغوى . إلى معان بيانية وأساليب بلاغية لملاحظ فنية جمالية . كالمعروف من خروج أساليب الخبر من دلالتها الأصلية الأولى إلى الدعاء والاسترحام والتفجع والشكوى . وخروج أساليب الأمر

---

(١) ذكره ابن النديم فى (الفهرست) فى مصنفات أبى عبد الله المرزبانى ، الخراسانى الأصل البغدادى المولد والوفاة (٢٩٧ – ٣٨٤ هـ) . وذكره كذلك أبو العلاء فى (رسالة الغفران) صفحة ٢٩١ طبع الذخائر.

(٢) انظر (التوابع والزوابع) لابن شهيد الأندلسى ، فى كتاب الذخيرة لابن بسام . ط جامعة القاهرة .

(٣) انظر المشهد فى لقاء ابن القارح بالشاعر الجنى أبى هدرش ، وقصيدتى أبى العلاء على لسانه ، فى (رسالة الغفران) ط الذخائر : دار المعارف القاهرة .

والنهى والاستفهام ، إلى الزجر والتعجب والتقرير والإلزام أو الجحد والإنكار ، والعدول بالتعبير عن أصل استعماله فى اللغة عن طريق الاستعارة أو المجاز أو الكناية والرمز.

ووصل إلينا الشعر الجاهلى بعد أن مر بمراحل طفولته التى غابت عنا ، مُحكَم الإيقاع متسق النغم سخى الإلهام . تمضى القصيدة منه حتى تجاوز أكثر من مائة بيت عداً ، دون خلل فى نسق النظم وضوابط الإيقاع .

وبلغت العربية من ذلك كله ، مستوى عالياً من دقة الدلالة وإحكام الصياغة ، استطاع معه العلماء فى عصر التدوين ، أن يستخلصوا من تراث الفصحى قواعد الصرف والنحو والاشتقاق والوضع ، وأحكام البلاغة وأساليب البيان وضوابط العروض .

وفى الجاهلية ، حددت العربية من قديم موقفها من الدخيل : لم ترفضه رفضاً باتًّا فى جهود وعناد ، ولم تطلقه دون قيد يغزوها ويمسخ أصالتها .

فبقدر ما توسعت فى الاشتقاق والمجاز ، ضيقت باب الأخذ من الألسنة التى خالطتها بطريقة أو بأخرى ، صوناً للسانها . فاستغنت إلى أقصى المدى بتطويع الألفاظ الفصحى لكى تؤدى معانى ما احتاجت إليه ، أو ما استملحته وانتخبته من الألفاظ الأعجمية . ولم تلجأ إلى استعارة الدخيل إلا عند الضرورة القصوى ، مع إخضاعه للصيغ العربية ، إما بإلحاقه بأقرب صيغ الفصحى إليه ، أو بتغيير طريقة نطقه ، إشعارا بتعريبه . وقد استطاع علماء العربية فى القرن الثانى للهجرة ، وما بعده ، أن يستخلصوا قواعد لمعرفة المعرَّب والدخيل ، تشهد بأن الأمر لم يُترك لفوضى العشوائية والارتجال ، بل خضع لنهج واضح التزمته العربية فيما تأخذ من الألسنة التى خالطتها[1] .

ثم كان أن مارست العربية فى جاهليتها المعروفة لنا تاريخاً وتراثاً ، حركة تطور بالغة الأهمية ، إذ اتجهت إلى استصفاء لغة مشتركة ، شبه رسمية ، تلتقى بها القبائل على اختلاف لهجاتها ، فيما يجاوز النطاق المحدود للقبيلة . وقد اختيرت لغة قريش ، بحكم موضعها من أم القرى والبيت العتيق ، وبما أتيح لها على المدى الطويل من انتقاء مختار الألفاظ والصيغ من لغات القبائل العربية الوافدة عليها فى مواسم الحج الدورية التى كانت فى الوقت نفسه مواسم أدبية شعرية ، وأسواق تبادل لغوى وتجارى . قال « ابن فارس » فى كتابه (الصاحبى) فى فقه اللغة :

---

(١) انظر : المزهر فى علوم اللغة السيوطى . ومعه كتابى (لغتنا والحياة) : المعارف .

[كانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش فى دارهم . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التى طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب] .

ونقل جلال الدين السيوطى فى كتابه (المزهر) قول الفارابى :

[كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً وإبانة عما فى النفس]

* * *

وتجلت آية الرحمن فى الإنسان علمه البيان ، فى لغة بدوية لقوم أميين ، ماتزال تبهر علماء اللغة العصريين ، بما كان لها فى جاهليتها الأمية من حس مرهف وذوق مصفى ونهج أصيل ، تسامى بها أرق لغات العالم المتمدن ، فى دقة الدلالة وإحكام الصياغة واطراد قواعد التصرف ، وخصب المجاز وعلو البيان . .

فما آذن ليل الجاهلية بمغيب ، حتى كانت هذه اللغة الفصحى أهلا لشرف نزول المعجزة القرآنية بها . قادرة على أن تواجه أكبر حركة تحول لغوى عرفه التاريخ منذ كان ، بتعرب الشعوب التى دخلت فى الإسلام بعد الفتوح الكبرى . .

* * *

فلنتمهل لنجتلى نور الفجر الصادق الذى بلغت فيه آية البيان ذروة الإعجاز ، وبدأت به لغة العرب حياة رحبة الآفاق بعيدة الآماد ، متجددة الطاقة مباركة العطاء . .

الفَجْرُ الصادق

«هُدًى للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان»

«هو الذى بَعَثَ فى الأُميين رسولاً منهم يَتلو
عليهم آياتِه ويُزكِّيهمْ ويُعلِّمُهُم الكتابَ
والحِكمة ، وإنْ كانوا من قَبْلُ لَفى ضلالٍ
مبين» .

[سورة الجمعة]   صدق الله العظيم

ذات ليلة من أخريات رمضان ، بعد ميلاد المسيح عليه السلام بستة قرون وعشر سنين ، لَفَّ أمَّ القرى صمتٌ لاغب مكدود ، لا يُسمع فيه سوى أنفاسِ الليل مختلطة بهمهمة صلوات وثنية ، كانت ماتزال تتسلل من البيت العتيق .

وقمر رمضان لم يبزغ بعد ، فليس على الأفق المعتم سوى ضوء شاحب نحيل ، من نجوم تحجبها عن مكة جبالُها الصخرية الشُم .

ونامت الدنيا لا تلقى بالاً إلى « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى » إذ أوى إلى غارٍ هناك مستغرقاً فى تأملاته ، يلتمس فى العتمة الداجية شعاعاً من نور الحق وينشد فى خلوته قبساً من هدى ، وخواطره تحوم حول مقام إبراهيم فى البيت الذى آل مع الزمن ، إلى مثوى لأوثانٍ ممسوخة وأصنام شوهاء بلهاء .

والتاريخ مشغول عن هذا الأمى الهاشمى ، بأحداث جسام خارج الجزيرة ، مشدود البصر إلى نذر الانهيار فى عالم يريد أن ينقض . يتابع الجولات الأخيرة للصراع بين قطبى ذلك العالم القديم ، حيث كانت دولتا الفرس والرومان تخوضان حرباً طاحنة على مراكز القوى والنفوذ ، وإحدى الدولتين قد أعشت نار المجوسية بصرها وبصيرتها فما عاد يعنيها سوى أن تجعل من ساحة الشرق كله معبداً لتلك النار العقيم ، تصلاها شعوبه بالقسر والإكراه .

والأخرى قد أثخنتها جراح الحرب وهدَّتها أمراض الشيخوخة ، واستنزفت بقايا قوتها فتنةُ الصراع الطائفى بين القائلين بناسوتية السيد المسيح والقائلين بلاهوتيته ، فتهاوى النسر الرومانى على الأرض يجثم على صدور خلق الله ويكتم أنفاسهم ، ويتسلط على مستعمراتهم بالعسف والطغيان والاضطهاد ، فى محاولة تستبقى له من الهيبة ما يستر وهنه ، ويعوضه عن قواه المستنزفة ومجده الآفل .

وبين هؤلاء وهؤلاء ، فلول من عصابات يهود ، تتربص بهم جميعاً الدوائر لترث ملكهم ، وتجعل من الدنيا معبداً للوثن الأصفر ، يستأثر سدنتُه اليهود بمفاتيحه ، ويتولّى أحبارهم شرح طقوس عبادته ، بعد أن عقوا الموسوية وكفروا برسولها ، وكادوا للمسيحية وائتمروا بنبيها ، وحرفوا كلمات كتابهم عن مواضعها ، لتلبى ما تأصل فى خلقتهم من شر وخبث وجشع وأثرة ، وتستجيب لما فى طبيعتهم من قسوة وحقد وعداوة للبشر .

وغير بعيد من غار حراء الذى شُغِلت عنه الدنيا والتاريخ ، هجعت مكة تجتر ذكريات مجدها الغابر وقد طوته وثنية ضالة عمياء ، وتساورها من حين إلى حين رجفة من قلقِ الوعى ، لا تلبث أن تهمد تحت وطأة الكابوس الجاثم .

ونامت قريش ، لا تحسب حساباً لهذا الهاشمى المختلى فى غار حراء ، وقد أَلِفتْ أن تراه ينسحب إليه من ضجيج المجتمع المكىّ ، عازفاً عن تلك الأوثان التى يعبدها قومه لأنهم وجدوا آباءهم لها عابدين ، وماذا على القوم أنْ عزف « محمد بن عبد الله » عن أوثانهم ورفض أن يعبدها مع الله أو يعبد الله فيها ؟ ! كذلك فعل مثل محمد من الحنفاء ، ليس عددهم بالذى يدخل فى الحساب بزيادة أو نقصان ، فى زحام أفواج الحجيج من قبائل العرب جميعاً ، ينثالون إلى مكة من كل فج عميق ، ليطوفوا بأوثانهم فى الكعبة ويؤدوا طقوس عبادتها ، موسماً بعد موسم ، وجيلا من بعد جيل . .

* * *

وأوغل الليل قبل أن يطلع فجر هذه الليلة من رمضان ، وينشر نوره على القمم والسفوح ، والبطاح والقيعان والأودية . .

ومع نور الفجر البازغ من الليلة المباركة ، تجلى الوحى للمختلى فى الغار ، وألقى إليه كلمة الله : « اقرأ » .

وما كان محمد بقارئ ، وما كان يتلو من كتاب ولا يخطه بيمينه ، من قبل أن يتلقى آياتِ الوحى الأولى :

« اقرأ باسم ربِّك الذى خلق ۝ خلق الإنسانَ من علَق . اقرأ وربُّك الأكرمُ . الذى عَلَّم بالقلم . عَلَّم الإنسانَ ما لم يعلم » .

وبدأ تاريخ جديد :

الرجل الذى سرى فى الليل إلى غار حراء على مألوفِ عادته منذ أنكر موضع الأصنام فى البيت الحرام ، وأيقن أن حياة الناس لا يمكن أن تمضى هكذا على سفَه وضلال . . خرج مع الفجر الصادق من الغار ، نبيًّا مبعوثاً بختام رسالات الله .

والكلمات الأولى التى تلقاها فى ليلة القدر هذه من وحى ربه ، كانت مستهلَّ كتاب معجز ، وآية بشر رسول ، ولواء عقيدة وجهت التاريخ وحررت الإنسان ، وصنعت أمة وقادت حضارة .

* * *

من الغار خرج المصطفى ، والنور ملء قلبه ، والكلمات ملء مسمعه ، واتجهت به خطاه نحو داره فى جوار الحرم ، والكون من حوله ساج خاشع ، وعلى الأفق نور الفجر الصادق ينسخ ظلمات ليل طال ، ويوشح البيت العتيق بِسَناً وضاء ، يكشف عما تكدّس فى حرمه من أصنام ، فتبدو على حقيقتها العارية ، صماء بلهاء . وقد كان لها من ظلام الليل سِتر كثيف يخدع البصر والبصيرة ، ويزيف الرؤية .

وتلا المصطفى كلمات ربه فى قومه الأميين الذين لم يعرف التاريخ لهم كتاباً قط من قبل المبعث . وإن عرف فيهم صلابة البداوة ونخوة الطبيعة التى لم تفسدها أمراض المدنية وآفات الترف .

ودعا إلى التوحيد ، جُفاةَ الوثنيين الذين بعدُ عهدُهم بالحنيفية ، وطال عليهم الأمد وهم عاكفون على أوثان وأصنام يخلقونها ويعبدون خالقهم فيها ، تجسيداً لما شق عليهم إدراكه من الجلال الأسنى والحق الخالص والكمال الأسمى والمثل الأعلى .

* * *

على نور الفجر الصادق ، عرف الأميون طريقهم وخرجوا من ظلمات الجاهلية ، فما مضى على المبعث عشرون عاماً حتى كان عرب الجزيرة كلهم قد نبذوا الأوثان وحطموا الأصنام ، وعبدوا الله وحده مخلصين له الدين حنفاء . .

ومن هَدْى القرآن تعلم الأميون الكتاب والحكمة ، فآمنوا بإله واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . .

بعد أقل من نصف قرن ، من ليلة القدر المباركة ، كان هؤلاء الأميون الذين تعلموا الكتاب والحكمة ، يطفئون نار المجوسية ، ويبطلون سحرَ الكفرة الفجرة ، ويدكون صروح الطاغوت ، وينطلقون فى الآفاق من مشرق ومغرب ، يحملون إلى الدنيا عقيدة التوحيد المحض والتنزيه المطلق ، وينشرون فى العالم الكتابَ والحكمة . . ويُبلغون البشرية رسالتهم التى ناط بها القرآن أمته ، فى آياته المحكمات :

« لا إكراه فى الدّين قد تبيَّن الرُّشْدُ من الغَىّ ، فمَنْ يَكفُرْ بالطاغوتِ ويؤمِنْ بالله فقد استمسك بالعُروةِ الوُثقَى لا انفصامَ لها ، والله سميع عَليمٌ » .

[البقرة : ٢٥٦]

« الذينَ إنْ مكَّنَّاهم فى الأرض أقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاة وأمَروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكرِ ، ولله عاقبةُ الأمور » .

[الحج : ٤١]

« ولْتكُنْ منكم أمَّةٌ يَدْعون إلى الخيرِ ويأمرون بالمعروفِ وينهَون عن المنكرِ ، وأولئك همُ المفلحون » .

[آل عمران : ١٠٤]

« كنتم خيرَ أمَّةٍ أخرِجت للناسِ تأمرون بالمعروف وتَنهَون عن المنكَرِ وتؤمنون باللهِ » .

[آل عمران : ١١٠]

« يأيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لِتَعارَفُوا ، إن أكرمَكم عندَ اللهِ أتقاكم ، إن اللهَ عليم خبير » .

[الحجرات : ١٣]

« فأما الزبَدُ فيذهبُ جُفاءً وأما ما ينفع الناسَ فيمكثُ فى الأرضِ ، كذلك يضرِبُ اللهُ الأمثالَ » .

[الرعد : ١٧]

« وتلك الأمثالُ نضربُها للناسِ وما يَعقلها إلا العالِمونَ » .

[العنكبوت : ٤٣]

« إنما يخشى الله من عبادِه العُلَماء » .

[فاطر : ٢٨]

* * *

وبدأت أمة القرآن من القرن الثانى للهجرة ، الثامن للميلاد المسيحى ، تقود البشرية لتخرجها من ظلمات الجهالة والأمية ، وتحررها من عقدةالخصومة بين الدين والعلم ، بما منَّ الله به عليها من عزة التوحيد وكرامة العقل . فانطلق علماء الدولة الإسلامية فى عصر قيادتها للحضارة ، آمنين من إصر الكهنوتية مطمئنين إلى تأييد عقيدتهم للعلم وإكبارها العقل الذى هو من جوهر الإنسانية الناطقة ، إذا تعطَّل أو جمُد ، مُسِخ الإنسان وهبط إلى دونية البهَم العجماء :

« إن شرَّ الدواب عند الله الصمُّ البكْم الذين لا يعقلون » .

« لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل همْ أضلُّ ، أولئك هم الغافلون » .

وما ارتاب علماء الإسلام فى أن العلم فى عقيدتهم فريضة وعبادة وجهاد ، وهم ينظرون فى الظواهر الكونية بعقلية جديدة متحررة ، لاجتلاء عجيب السنن الكونية

المحكمة ، ويمارسون التجارب العلمية المعملية ، لتحقيق آية الله فيما سخَّر للإنسان : « ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً » فقدَّموا جديداً أصيلاً من العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية ، ودخلوا التاريخ العلمى رُوَّاداً لآفاق لم يستشرفها أحدٌ قبلهم ، فكانوا هم الذين أصَّلوا المنهج التجريبى الاستقرائى ، وأعطوا الإنسانية أوليَّات الكتب العلمية فى الطبيعيات والرياضيات ، وقدموا معها مخترعاتهم من أجهزة التجربة المعملية والرصد الفلكى والخبرة الجغرافية والملاحية . وبفضلهم تم نقل العلوم إلى مجال البحث التجريبى الذى لم تعرفه الفلسفة اليونانية بمنهجها العقلى النظرى .

وكان رصيد خبرة العلماء المسلمين وتجربتهم وتراثهم العلمى ، قاعدة الأساس لعصر العلم الحديث الذى حقق تقدماً باهراً فى الغرب الأوربى ، انطلاقاً من عصر الإحياء (الرينسانس) الذى قام على تراث الحضارة الإسلامية وتزوَّد بعطائها . .

* * *

شُرِّفت العربية بنزول القرآن بها ، كتاباً عربيًّا مبيناً : معجزة بشرٍ رسول ، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . ففرض إعجازه على العرب والفصحى لغتهم سليقة وفطرة ، والبيان طوع ألسنتهم .

وكُتبت حياة جديدة رحبة الآفاق ، لهذه العربية التى ظلت آباداً إلى ليلة القدر ، منعزلة فى بواديها وقراها ، محصورة فى نطاق أهلها العرب الأميين :

من القرآن الكريم ، تلقت العربية زاداً سخيًّا مباركاً من أساليب البيان المعجز ، ومدداً من الدلالات الإسلامية التى استحدثها القرآن لألفاظٍ من عصرها الجاهلى ، كالإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، والبصر والعمى ، والساعة والقيامة والحساب ، والجنة والنار . . .

ثم كان التحول الفذّ ، الذى لم يعرف له التاريخ مثيلاً قط ، وهيهات أن يعرف مثله أبداً :

شعوب العالم القديم ، كانت قد خضعت على طول ألف عام ، للاستعمار الأجنبى . وقد حاول الغزاة من رومان وفرس ويونان ، أن يفرضوا عليها عقائدهم وألسنتهم وقومياتهم بالقسر والإكراه والإرهاب ، فواجهتها الشعوب بالتحدى والرفض ، بحيث ظلت على المدى الطويل ، عقائد أجنبى مستعمر ، ولغة دواوين وثقافة دخيل ، يرتهن بقاؤها بما يحميها من سلطة الحكم وجبروت الاحتلال :

من عجب أنها ماكادت تصغى إلى دعوة الإسلام من حَمَلته الفاتحين ، حتى استجابت له طواعية ، وحملت لواء دينها الجديد داعية إليه مجاهدة فى سبيله ، مشاركة فى حركة المد الكبير للفتوح الإسلامية ، حتى بلغت بها أقاصى المشرق والمغرب . ونبذت كل ماضيها لتبدأ تاريخها الإسلامى ، أمة واحدة .

وفى نصف قرن فحسب ، كانت هذه الشعوب قد هجرت ألسنتها الأولى ، واختارت لغة القرآن لساناً لها ، وهى التى عصيت الزمنَ الطويل على المستعمرين الأجانب ، فمضوا عنها لم يخلفوا من بعدهم لغة لاتينية أو فارسية أو رومانية !

وسارت العربية مع القرآن الكريم حيث سار ، فإذا تراث الجاهلية من قصائد البدو وأراجيز الرعاة وأحاديث الفتيان فى مسامر القرى ودروب الصحراء ، وموقف الشعراء فى المواسم والأسواق ؛ تغدو تراثاً غالياً يلتمسه الرواة الإسلاميون من بوادى الجزيرة التى احتفظت بنقاء عربيتها ، ويشدّون من أجله الرحال إلى منازل القبائل ، ليأخذوا من أفواه الأعراب ماوعت ذاكرتهم من تراث الآباء والأجداد .

ثم عكفوا عليه ، يدونونه ويصنفون منه معجم ألفاظ الفصحى ، لغة الدين والدولة ، ويستقرئونه ليستنبطوا منه قواعد نحوها واشتقاقها وتصرفها ، وخصائص بيانها وموازين شعرها .

واستوعبت هذه العربية ، ما عرَّب المترجمون من تراث الفلسفة اليونانية ونظريات العلم والفكر القديم ، فأدَّتْه عربىَّ اللسان إسلامى الروح . .

ووسِعَها ، فى طواعية مرنة وحيوية فذة وأصالة راسخة ، أن تستجيب لاتساع آفاق الدولة الإسلامية ، واعية لدورها الجليل فى الوفاء بحاجات الحياة اللغوية للحضارة الإسلامية الرائدة ، ومدركةً مغزى كونها لغةَ أمةٍ قوية قائدة ، ولسان شعوبٍ ذات عراقة فى المدنية والفكر والثقافة .

ومايزال التاريخ فى عجب من أمر هذه العربية : كيف استطاعت بعبقرية فذة ، أن تأخذ مجراها الحيوى بين الأصالة والتطور ، لتكون لغة الدين والعلم والأدب والثقافة ، لشعوب تفاوت ميراثها الحضارى ، واختلفت سلائقها اللغوية باختلاف ألسنتها الأولى ، وتحقق وجودها اللغوى محافظة على أنق أصالتها العريقة ، ومتجددة مع الحياة التى لا تسمح بالبقاء لما لا يصلح للبقاء ؟ !

* * *

ومن قبل أن تخترع المطبعة فى الدنيا ، كانت دور العلم والحكمة تقوم على ساحة العالم الإسلامى من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، صروحاً شامخة للمعرفة ، ومنارات هادية فى ليل العصور الوسطى .

ومن قبل أن تقرأ الدنيا أول كتاب مطبوع ، كانت هذه الدور الإسلامية كنوزاً عامرة بملايين الذخائر من الكتب المخطوطة ، فى شتى فروع العلم وضروب المعرفة وفنون الثقافة . . .

ثم تغيرت الدنيا ، وتحول متَّجه الحضارة من الشرق الإسلامى إلى الغرب الأوربى ، على المعابر التاريخية التى نقلت تراث علومنا وكنوز حضارتنا : البوسفور وصقلية والأندلس . . .

وتعرض العالم الإسلامى ، مشرقه ومغربه ، لتيارات غزو جائح مذهبى وفكرى ولغوى ، وعسكرى واقتصادى . .

وبقيت العربية تتحدَّى ذرائع القهر والضياع ، وتفرض وجودها الحيوى على الدنيا . .

وبقى القرآن ، ويبقى لنا أبداً ، يحمى وجود أمتنا ويقود مسراها فى ظلمات المحن وغواشى الخطوب ، ويجلو بصيرتها بنور العلم والحكمة ، ويهدى خطاها فيما تحمل من تكاليف وجودها الحر الكريم ، جهاداً فى سبيل الله ، ضد الباطل والشر والقبح :

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياتِه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفى ضلال مبين » .

صدق الله العظيم

وراء الأسوار

« علم الإنسان ما لم يعلم »

من عجب أن صحراء الجزيرة العربية ، مهد العربية والإسلام ، ظلت بمعزلٍ عن كل هاتيك الأحداث الكبار ، لا تكاد تحس حركة سير الزمن بلغة العرب وأمة القرآن ، ولا تدرى شيئاً عما ارتدنا وارتاد غيرنا من جديد الآفاق ، واكتشفنا واكتشفوا من مجاهل الكون وأسرار الحياة وموازين القوى ، وسخرنا وسخروا بإذن الله ، من ظواهر الطبيعة وخواص العناصر . . .

مضت قرون أربعة عشر ، وملايين المسلمين فى شتى أقطار الأرض يولون وجوههم حيثما كانوا شطرَ المسجد الحرام فى أم القرى ، مصبحين وممسين وعَشيًّا وحين يُظهرون ، ومئات الألوف منهم يسعون إليه فى موسم الحج من كل سنة قمرية ، ملبين ضارعين :

لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك

غير أنهم قلما يتجاوزون الحجاز إلى نجد ، فضلا عن أن يوغلوا فى الدهناء والربع الخالى . .

وكلما هل هلال رمضان ، احتشدت مواكبهم لرؤيته ، وبدءوا به موسمهم الدينى الكبير صياماً ومجاهدة ، احتفالا بالشهر الذى بدأ فيه نزول القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وقلوبهم ترنو فى خشوع إلى غار حراء بمكة ، حيث بزغ نور الفجر الصادق .

وصحراء الجزيرة ، على مسار تلك القرون ، قائمة هناك بكل صمتها العميق وسرها المحجوب ، تترامى وراء أسوار جبالها الحاجزة عن تهامة وساحل البحر الأحمر ، ممتدة إلى شطوط الخليج ومشارف اليمن فى عزلة موحشة : لا تعرفها دنيانا وإن تكلمت بلغتها ، وبايعت نبيًّا من صميم قبائلها ، وآمنت بدينٍ حمله إليها عربٌ خُلَّص من جند الإسلام الأولين .

بقيت الصحراء هناك ، لا يكاد يلم بها أحد سوى جماعات من البدو الرحَّل يهيمون فى فلواتها ملتمسين مواقع الغيث ومنازل المطر ؛ وعلماءُ الاستشراق فى كبريات العواصم من عالم اليوم ، عاكفون على جمع ذخائر تراثها ودرس شخصيتها ، وطلابُ الجامعات والمعاهد فى المشرق والمغرب يدرسون أصيل الفصحى ويحفظون أمثال البدو وأراجيز الرعاة ، ويعرفون وقائع مهلهل وعنترة ، ومغامرات الصعاليك وقصص الفتيان ، ويسهرون على نار حاتم والمحلق ، ويشجيهم على بعد الديار بكاءُ الأطلال ومراثى

الأحباب ، ويكادون يسمعون رغاء الإبل وتصهال الخيل ونزع الأوتاد عند شدِّ الرحال ، كأنهم مع الحارث بن حلزة البكرى إذ يقول .

أجمعوا أمرهم عشاءً فلما أصبحوا أصبحتْ لهم ضوضاءُ

من منادٍ ومن مجيبٍ ومن تصـ ـهالِ خيلٍ ، خلالَ ذاك رغاء

بقيت الجزيرة ، فيما عدا أطرافها وقُراها ، نائية مهجورة غامضة مقنعة ، لا تريد أن تتصل بالدنيا خارجَها أو تبيح حماها لغير أهلها الأعراب البداة . . قد آثرت العزلة على الاتصال بالدنيا ، وأقامت بواديها الواسعة ورمالَها المتراكمة وصخورَها الصلبة ، أسواراً منيعة تحمى أعرافها وتقاليدها وعاداتها ، غير مستجيبة لتطور الحياة ولا مكترثة بسير الزمان [فلو أن أحد العرب القدامى عاد إلى تلك البقاع من الجزيرة لما وجد ما يثير دهشته : سيجد العرب فى خيامهم السود ، والبدو الرحل على ظهور إبلهم ، والرعاة يستسقون . سيجد كل شىء فى مكانه كما تركه ، وملابس الناس كما كانت ومظهرهم الجسمانى لم يتبدل][1] .

الدنيا الجديدة ، من وراء أسوار الجزيرة ، انتقلت من عصر البخار إلى الكهرباء فالذرة ، ومن عصر القاطرة والباخرة إلى السيارة والطائرة ،

والجزيرة فى عزلتها العنيدة تتحدى كل تغيير وتمتنع على كل تطور . وتترامى صحاريها : الدهناءُ والنفودُ والربعُ الخالى ، من شرق نجد ومن شمال وجنوب ، حدًّا فاصلاً بين عالم اليوم ، وتلك الصورة الباقية من قديم الزمان .

حياة فطرية بدوية ، لا تكاد تختلف فى شىء عن تلك التى عرفتْها العربُ البائدة فى قديمها الغابر ، فيما عدا الإسلام الذى اعتنقته الجزيرة ديناً من زمن المبعث ، فكان آخر عهدها بالأصنام والأوثان .

« بحار من الرمال الناعمة تكاد تبتلع المارة لنعومتها وتخلخلها ، وقبائل من البدو الرحَّل الرعاة ، المطرُ محور حياتهم ومشغلة بالهم ، فأهل نجد لا يأبهون لشىء إذا رزقهم الله المطر تحيا به زروعهم وأنعامهم . أما الصحراء الجنوبية فلا يكاد يصيبها الرذاذ ساعة واحدة كل ثلاث سنين أو أربع »[2] .

---

(١) ر . ف . بودلى : (الرسول) ترجمة محمد فرج وعبد الحميد السحار .

(٢) السيد حافظ وهبة : جزيرة العرب : ص ٦ .

وهم مع ذلك راضون عنها متشبثون بها ، وربما عرضت لبعضهم فرصة الحياة الناعمة فى حضر ، فرفضوا أن يستبدلوها بحياتهم الشاقة القاسية . الخشنة الجافية . وبفرض أنها حياة تقصر الأجل ، فهى تهب مع العمر القصير نعمة الحرية والانطلاق . والآجال ، بعدُ كتابٌ موقوت على الناس جميعاً ، بدوهم والحضر « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ، « أينما تكونوا يُدرككم الموتُ ولوكنتم فى بروج مشيدة » .

ولعل فيهم من لا يزالون يحفظون ، مع ما يتلون من آيات الفرقان فى حتمية الموت ، أقوالاً لشعرائهم الجاهليين جرت مجرى الأمثال ، كقول الشاعر الشاب « طرفة بن العبد » البكرى :

أرى الموت أعدادَ النفوس ولا أرى ... بعيداً غداً ما أقرب اليومَ من غدِ

لَعمرُكَ إن الموت ما أخطأ الفتى ... لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنياهُ باليد

وقول شيخهم الحكيم «زهير بن أبى سلمى» :

ومَن هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَه ... ولو رام أسبابَ السماءِ بسُلَّمِ

وقول « السُّلَكةِ ، أم السليك » الفتى الجاهلى الصعلوك ، تبكى مصرعَه :

راح يبغى نجوةً من هَلاكٍ فهَلَكْ ... والمنايا للفتى رصدٌ حيث سَلَكْ

وشهدت دنيانا فى العصر الحديث مثل هذه المفارقات :

فى ربوع النيل والشام وبلاد النهرين وإيران ، مما يلى حدود الجزيرة العربية غرباً وشمالا وشرقاً ، قصور باذخة ، ومبان راسخة منها آثار تبلغ من العمر ألوف سنين .

وغير بعيد منها فى الجزيرة العربية بُداةٌ رُحَّل يسكنون الخيام المتنقلة معهم حيث نزلوا ، لا يعرفون فى القرن العشرين ، فائدة للأبواب والنوافذ الخشبية « حتى إن البدو الذين كانوا فى جيش الملك حسين[1] إبان الحرب العظمى ، كان عملهم بعد الاستيلاء على الطائف ، نزع خشب النوافذ والأبواب لا لبيعها والانتفاع بثمنها ، بل لاستعمالها وقوداً للقهوة أو الطبخ أو التدفئة . وبدوُ نجد قد فعلوا مثل ذلك تماماً : فعندما أسكنت الحكومة بعض القبائل فى ثكنة جرَوَل ، اكتشفت أن النوافذ والأبواب الخشبية تنقص بالتدريج ، وأنها استعملت للطبخ وتحضير القهوة . وأخرجهم جلالة الملك توًّا من الثكنة ، وأسكن الحضَرَ

---

(١) الملك حسين ، الشريف الهاشمى ، أبو فيصل الأول وعبد الله ، ملكى العراق وشرق الأردن . كان الشريف حسين ملكاً على الحجاز حتى هزمه النجديون سنة ١٩٢٥ . ودخل الحجاز مع سائر مناطق الجزيرة فى المملكة العربية السعودية .

فيها . والحضر بطبيعتهم يفهمون ما لا يفهمه البدو عن النوافذ والأبواب »[١] .

وكان الحجاج من الأقطار الإسلامية المجاورة للجزيرة ، يسعون إلى حدودها ، راكبين البواخر والسيارات والقطر الحديدية ، فإذا بلغوا الحجاز تنقلوا بالجمال من حيث جاءوا ، إلى مكة والمدينة .

وحين كان المنطاد (جراف تسبلين) يحلق فى أفق الشرق الأوسط سنة ١٩٣٠ م ، كان مشايخ نجد وأهلها بعامة ، يرون التلغراف اللاسلكى من عمل الجن ، ويشفقون على عاهلهم « الملك الراحل عبد العزيز آل سعود » من عواقب الإصغاء إلى جند الشيطان الذين يزينون له استخدام السيارة واللاسلكى !

حدّث « السيد حافظ » وهبة أن جلالة الملك أوفده إلى المدينة سنة ١٩٢٨ م ، مع عالم من علماء نجد ، للتفتيش الإدارى والدينى .

« فجرى فكرُ التلغراف اللاسلكى وما يتصل به من المستحدثات . فقال الشيخ : لاشك أن هذه الأشياء ناشئة من استخدام الجن ، وقد أخبره ثِقَةٌ أن التلغراف اللاسلكى لا يشتغل إلا بعد أن تُذبَح عنده ذبيحة ويُذكَر عليها اسمُ الشيطان » :

« ثم أخذ يذكر لى بعض القصص عن استخدام بنى آدم للشيطان ! ولقد كان شرحى لنظرية التلغراف اللاسلكى وتاريخ استكشافه ، ليس له نصيب من إقناع الشيخ . ولم أجد أية فائدة من وراء البحث ، فسكتُّ على مضض . . .

« وفى يوم من الأيام ، دعانى الشيخ لمرافقته لزيارة قبر حمزة ، عم الرسول – عليه الصلاة والسلام – عند (أُحُد) حيث استشهد حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه – وفى أثناء الطريق ، أوقفت السيارة عند محطة التلغراف اللاسلكى . وهنا سأل الشيخ : لماذا وقفت السيارة ؟ فأجبته : لنرى التلغراف اللاسلكى ، فإذا كان هنالك ذبائح ودعوة لغير الله ، فإنى سأحرقه مهما تكن النتيجة ، فالدّين لله لا لابنِ سعود . وقد يكون الملك مخدوعاً فى أمر هذه التلغرافات ، وتُذكَر له الأشياء على غير حقيقتها .

« فقال الشيخ : بارك الله فيك » .

« فدخلت المحطة ، وبعد البحث لم يجد الشيخ أى أثر لعظام الذبائح وقرونها أو صوفها . ثم أراه العاملُ طريقة المخابرة . وفى دقائق ، تبودلت المخابرات والتحيات بينه

---

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب .

وبين جلالة الملك فى جدّة . . كانت هذه الزيارة البسيطة مدعاةً للشك فيما كان يعتقده من عمل الشيطان فى المخابرات . ولكنه ظن أنى ربما دبَّرتُ هذه المكيدة بإيعاز من الملك . فزار الشيخ محطة التلغراف بضع مرات منفرداً فى أوقات مختلفة بدون أن يخبر أحداً بعزمه ، فكان يفاجئْ العامل بالزيارة ويسأله عن كل ما يغمض عليه . . وعندما وُضعت الآلة اللاسلكية واستعملت فى الرياض – عاصمة نجد والمملكة – كان الناس يغرى بعضهم بعضاً بأن إنشاء هذه المحطة هو الحدُّ بين الخير والشر ، وكان العلماء يرسلون مَن يأتمنونهم لزيارة المحطة ورؤية الشياطين والذبائح تُقدم لهم ، فلم يجدوا شيئاً . وقد أخبرنى عامل المحطة أن بعض المشايخ الصغار ، كانوا يترددون عليه من وقت لآخر . لسؤاله عن موعد زيارة الشياطين ، وهل الشيطان الكبير فى مكة أو الرياض ؟ وكم عدد أولاده الذين يساعدونه فى مهمة نقل الأخبار ؟ فكان يجيبهم بأنْ ليس للشياطين دخلٌ فى عمله . وكان بعضهم يغريه بالنقود ، وأنهم سيكتمون السر ! »[1].

ولم تكن السيارات والدراجات ، أسعدَحظًّا من اللاسلكى فركوب الدراجة – واسمُها فى نجد : عربة الشيطان أو حصان إبليس – كان إلى عهد قريب إثماً ومعصية . فهى بدعة تسير بقوة السحر وعمل الشيطان ، بدليل أن الراكب إذا نزل لم تقف ! وكان فى الإخوان ، مشايخ نجد ، من يرون من حقهم ، أو من واجبهم الدينى ، منع هذا الإثم ، وضرب راكب الدراجة ولو كان من خدم الملك !

وحدث فى نجد ، وقد مضى من القرن العشرين نحو عقدين ، أنْ كُسِرَتْ أولُ ساعة دقاقة ، وعُدَّت من عمل الشيطان . ولم تكد هذه الفكرة تُشاع ، حتى قامت قيامة الإخوان من سكان البادية ، منكرين استعمالها ، وأعلنوا فى الناس فتياهم : « إن أقل الأحوال فيها أنها بدعة » مما اضطر أحد المشايخ – الشيخ سعيد بن سحمان – إلى أن يرد عليهم فى رسالة نشرها سنة ١٣٣٤ هـ ، ١٩١٦ م . وطبعت فى القاهرة سنة ١٩٢٣ م .

---

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب ، ص ٣٠٨ .

المعركة الكبرى

«من اليوم ، سنحيا حياة جديدة»

الملك عبد العزيز

فى مثل تلك العزلة العنيدة عن الدنيا والحياة ، كان العرب من بوادى الجزيرة يعيشون بعقليتهم وأوضاعهم فى حصون منيعة وراء الأسوار ، يشهرون السلاح فى وجه كل تطور ، ويدفعون منكرات بِدَعه بالسيف .

وكانت تلك هى المعركة الكبرى التى خاضها عاهل الجزيرة الراحل « الملك عبد العزيز آل سعود » على كثرة ما خاض قبلها من معارك مشهودة . أذكر منها معركته التى استرد فيها « الرياض » من خصمه القوى اللدود « محمد بن الرشيد » شيخ قبائل شمَّر شمالىَّ نجد . وكان جيش عبد العزيز الذى اقتحم به معقل العدو فى عاصمة نجد ، كتيبة من الرجال عدتهم أربعون ، أبقى أكثرهم عند سور البلدة ، وهاجم فى خمسة عشر من صحبه ، عاملَ ابن الرشيد فى حصنه بين جنده وحَرَسه ، فما انتصف النهار حتى أذن المؤذن من الحصن : إن الحكم لله ثم لعبد العزيز .

والأخرى التى لقى فيها عبد العزيز ، الشريفَ حسين ملك الحجاز ، سنة ١٩٢٥ ، فهزم جندَه بالطائف ثم دخل مكة فاتحاً دون حرب ، ومن بعدها دخل المدينة ، ثم جدة : آخر معاقل الأشراف .

لكن معركته الكبرى ، كانت هذه الثورة الإصلاحية ، يواجه فيها إخوانه وأهله وأصدقاءه ورعاياه ، وما أشق النضال حين يكون ضد أخ وصديق ، من هؤلاء الذين انتصر بهم على الملك حسين وعلى ابن الرشيد !

ومثل هذه المعركة ، لا تعرف المواقف الحاسمة ، وإنما هى جولات تتعاقب وصراع يتجدد كلما بدا لعاهل الجزيرة أن يدخل إليها جديداً من مخترعات الأجهزة ومُحدثات العلم . وقد لبث زمناً غير قصير ، متردداً بين رغبته فى الإصلاح ومسايرته الإخوان . وصابرهم طويلاً وهم على موقفهم من عداء العلم الحديث ومعاندة التطور .

أراد العاهل الكبير أن يمد سلكاً تليفونياً بين مكة ومعسكره فى جُدَاء ، والمسافة بينهما

تستغرق ثمانى ساعات ذهاباً ومثلها فى الإياب ، على ظهور الخيل والإبل السريعة . لكنه اضطر إلى إرجاء المشروع كيلا تثور ثائرة الإخوان الذين كانوا يقطعون أسلاك التليفون « لأنها منكر تجب إزالته » .

حتى إذا لم يجد بدًّا من نفع قومه وبلاده بمحدث المخترعات العلمية ، عمد إلى ملاينة الإخوان وإقناعهم بالحجة ، عسى أن يطمئنوا إلى أن ذلك كله من تحقيق آيات الخالق سبحانه ، فيما سخر لنا مما فى السموات والأرض جميعاً . وفى مؤتمر بالرياض ، دعا إليه العاهل كبارَ المشايخ فى يناير سنة ١٩٢٧ ، كان أقصى ما وصل إليه منهم ، بعد طول المناظرة والجدل ، الفتوى المشهورة :

« . . أما مسألة البرق فهو أمر حادث فى آخر الزمان هذا ، ولا نعلم حقيقته ولا رأينا فيه كلاماً لأحد من أهل العلم . فتوقفنا فى مسألته ، ولا نقول على الله ورسوله بغير علم . والجزمُ بالإباحة والتحريم ، يحتاج إلى الوقوف على حقيقته » .

وما كان لمثل الفُتيا أن تحسم الموقف ، وبدا أن الإخوان مصرون على توقفهم فى كل « أمر حادث فى آخر الزمان هذا » مما اضطر العاهل المصلح إلى اصطناع الحزم فى كلامه معهم .

حدَّث ، رحمه الله ، أن المشايخ حضروا عنده لمَّا علموا بعزمه على إنشاء محطات لاسلكية فى الرياض وبعض المدن الكبيرة فى نجد . فقالوا له : ياطويل العمر ، لقد غشَّك من أشار عليك باستعمال التلغراف وإدخاله إلى بلادنا ، وإن «فلبى» سيجر علينا المصائب . فقال لهم الملك : « لقد أخطأتم ، فلم يغشنا أحد . ولست ولله الحمدُ بضعيف العقل أو قصير النظر لأُخدَع . . وما « فلبى » إلا تاجر ، وكان وسيطاً فى هذه الصفقة . إخوانى المشايخ : أنتم الآن فوق رأسى ، تماسَكوا بعضَكم ببعض ، لا تدعونى أهزّ رأسى فيقع بعضكم أو أكثركم ، وأنتم تعلمون أن من وقع على الأرض ، لا يمكن أن يوضع فوق رأسى مرة ثانية . مسألتان لا أسمع فيهما كلام أحد لظهور فائدتهما لى ولبلادى ، وليس هناك من دليل أو سنَّة يمنع من إحداث : اللاسلكى والسيارات »[1] .

---

(١) عبد الرحمن نصر : عاهل الجزيرة ، ص ١١٨ وما بعدها ، وفلبى ، سانت جون : كان ضابطاً سياسيا فى دار المندوب السامى ببغداد . أوفده الإنجليز لمفاوضة ابن سعود سنة ١٩١٧ إبان الحرب العظمى ، والمعركة فى الميدان الشرقى دائرة بين الإنجليز والترك . وقد أشهر فلبى إسلامه ، وسمى نفسه « عبد الله » ووضع خبرته الاقتصادية والسياسية فى خدمة الملك عبد العزيز ، وخدمة الإنجليز بطبيعة الحال :

ولم يحسم النزاع ، بل نال بعضهم العاهلَ الإمام « بموالاة الكفار والتساهل فى الدين . وأنكروا عليه تطويل الثوب والشارب ولبس العقال . إلى غير ذلك من ضروب الجهالة » وأصبحوا يُحرِّمون كل ما لا يتفق ومذهبهم . حتى كادت تكون فتنة أهلية بين الإخوان والحكومة ، بين البدو والحضر . فجرد العاهل كتيبة من شباب المتفقهين فى دينهم ، وأوفدهم إلى شباب الإخوان ، عسى أن يُصلحوا ما أفسد الكبار ولما بلغ الأمر أقصى مداه ، عيل صبر العاهل الشيخ ، فأرسل جنده فى مستهل سنة ١٩٣٠ لتأديب « العُصاة الذين طغوا وعاثوا فى الأرض فساداً ، باسم الدفاع عن الدين وجئ برأس الفتنة « فيصل الدويش » بعد معركة أم الرضمة ، إلى خيمة الملك فى سيارة مكشوفة فكانت اللعنات تُصب عليه من أتباعه ، لركوبه السيارة !

وكان مما قاله الدويش بعد انكساره :

« يعلم الله يا عبد العزيز أنك لم تقصر معنا . وقد فعلتَ كل ما يبيض وجهك ، وقابلنا معروفك بالإساءة . لقد فررنا من وجهك إلى الكفار فحملونا إليك فى طيارة من طياراتهم . ويكفى ما أشعر به من الهوان والصغار أمام الإخوان ، بعد أن كنت عزيزاً محترماً »[1] .

وقد عَدَّ بعض الكتاب معركة (أم الرضمة) وما تلاها من استسلام « الدويش » للملك عبد العزيز : من المعارك الفاصلة بين النظام والفوضى ، وعدُّوا نصر الملك فيها : نصراً للتقدم على الرجعية .

وأصغت الجزيرة كلها إلى كلمة عاهلها ، بعد أم الرضمة : « من اليوم منحيا حياة جديدة » .

لكن الواقع أن تحضير البادية لم يكن ليتم باستسلام هذا المتمرد أو ذاك ، ولا كان بحيث يتقرر فى هذه المعركة أو أخرى ، وإنما هو الصراع المستمر المتحفز ، يتجدَّد مع كل مجلوب من مستحدثات العلم . وقد يكمن فترة تحت رماد الخضوع أو المداراة ، ليعود بعد حين أحدَّ ضراماً .

والذى حدث بالفعل بعد تلك الجولة ، أن حركة التحضير والتعمير سارت بطيئة فى

---

(١) كان فيصل الدويش من زعماء القبائل وكبار الإخوان ، خرج على الملك عبد العزيز سنة ١٩٢٩ ثم لما حاقت به الهزيمة هرب إلى الكويت وسلم نفسه إلى دورية بريطانية أعادته إلى الملك عبد العزيز – انظر : عاهل الجزيرة ٢٢١ : ٢٣٨ .

وجه مقاومة قوية من سلطان الإلف والعادة ، وموروث الأعراف والأوضاع . ويشهد على ذلك أن الملك عبد العزيز أعلن ، رحمه الله ، بدء الحياة الجديدة ، فى شهر يناير سنة ١٩٣٠ ، وظلت البادية بعد ذلك تنظر فى حذر وارتياب إلى كل خطوة نحو التحضر ، وتحاول أن تدفع منكراتِ البدع باللسان أو القلب ، بعد أن عجزت عن دفعها باليد . .

وبدا كأن الصحراء فى حاجة إلى معجزة جديدة ، تضع حدًّا لهذه الحرب الخفية ضد العلم الذى يتجه إلى الإسلام فى ترسيخ الإيمان ، وتُمكن عاهل الجزيرة من تنفيذ رغبته فى إصلاح وطيد الأسس حاسم النتائج ، بدلا من هذه الخطوات البطيئة الحذِرة ، المهدَّدة فى أى وقت بهجوم مضادٍّ من الرجعية ، يعيدها القهقرى مجهدة مقهورة .

° ° °

هل قلت إن المعركة كانت بين الرجعية والمحدثات من بدع الأجهزة والآلات ! إنى إذن لم أقل كل الواقع ، فالحق أن أبعاد الصراع كانت أعمق غوراً وأوسع مجالاً ، لم يقف الصراع عند (البدع) المستحدثة فى آخر هذا الزمان ، بل امتد إلى نمط العيش ومواد التعليم موغلا فى الصميم ، لم يكد يدع كبيرة ولا صغيرة من شئون الحياة .

وقد نقلت آنفاً ، ماكان من نيل بعضهم الإمام العاهل بموالاة الكفار والتساهل فى الدين ، وإنكارهم عليه تطويلَ الثوب والشارب ولبس العقال . ولنا أن نتصور مدى ماكان المجدد المصلح يحتاج إليه من جهد وصبر وحزم وحِكمة وطول بال . لكى يتغلب على عناد قوم ضجوا لأن المدارس تريد لتفتن التلاميذ عن العلم الحق الذى لا يمكن أن يخرج عندهم عن التفسير والحديث والفقه وعلوم العربية وتاريخ الإسلام . وكان من مظاهر الضجة أن « اجتمع علماء الدين من النجديين ، سنة ١٩٣٠ وتشاوروا فى الأمر ، ثم أصدروا قراراً بالاحتجاج على إدارة المعارف فى مكة ، لأنها أدخلت فى برنامج التعليم : الرسم واللغة الأجنبية والجغرافية . » !

ولم ير العاهل من الحكمة أن يمضى فى سبيله غير مكترث لاحتجاج المشايخ ، بل أوفد رسولاً إليهم « ليجلو لهم الأمر ويبحث معهم فى شأن هذه المسائل التى احتجوا عليها وطلبوا إلغاءها من برامج التعليم » .

قال قائلهم :

« لقد بيَّنا للإمام عبد العزيز الأدلة والمفاسد التى تترتب على تقرير هذه العلوم : أما الرسم فهو التصوير وهو محرم قطعاً . وأما اللغات فإنها ذريعة للوقوف على عقائد الكفار

وعلومهم الفاسدة ، وفى ذلك ما فيه من الخطر على عقائدنا وعلى أخلاق أبنائنا . وأما الجغرافية ففيها كروية الأرض ودورانُها ، والكلامُ على النجوم والكواكب ، مما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف » .

أريد لأقول : إن معركة أم الرضمة لم تكن الفاصلة كما بدت فى حينها ، فهذا الرفض لتدريس الرسم والجغرافية بمدارس مكة ، قد كان بعد استلام فيصل الدويش للملك عبد العزيز . ومشايخ نجد قد كانوا « يحرمون دروس المنطق والفلسفة ، وينكرون على بعض المتعلمين قراءة الصحف السيارة ، ويرون المثل الأعلى للعلماء ، أن يصرفوا أعمارهم فى الرد على مخالفيهم » ، ومن ثم أرادوا لإمامهم عبد العزيز ، أن يشغل بالدفاع عن مذهب نجد الوهابى ، والجهاد فى سبيل نقاء العقيدة الإسلامية من شوائب البدع ، وحماية البلاد من كل طارئ دخيل . .

° ° °

وفيما كان الصراع على أشده بين التطور الحضارى والجمود على موروث الأوضاع والأعراف ، تجلت آية العلم فكشفت فى الفلاة الموحشة المغلَقة ، عن كنز ثمين مطمور تحت الحصى والرمال .

وسقطت الحواجز والأسوار . فإذا بصحراء الجزيرة تشد إليها الأنظار والأسماع فى عالم اليوم . . .

° ° °

وجهاً لوجه
فى قلب الصحراء . . .

« وسخّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض
جميعاً منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »
صدق الله العظيم

كانوا أشبه بفريق من الرحّالة الروّاد ، نزحوا من العالَم الجديد فى بداية الثلث الثانى من هذا القرن العشرين ، ونصبوا خيامهم بين جبال النهدين والظهران على حافة الربع الخالى ، حيث لا ظل ولا ماء ، بل المَهْمَهُ القفر يمتد عن يمين وشمال ، ومن الأمام والخلف ، ماحلاً موحشاً رهيباً ، تتلوى خيوط الرمال على أديمه كأنها الثعابين ، وتعوى الريح على أعالى قممه وكثبانه ، فتجاوبها من السفوح والقيعان أصداء كأنها عزيف الجان ، فهى كما وصفها « ذو الرمة » من وراء نحو ألف وثلاثمائة سنة :

ورملٍ لِعَزفِ الجنِّ فى عقداتِه هريرٌ كتَضَرْابِ المغنينَ بالطبلِ

نصبوا خيامهم هناك منبوذين بالعراء ، حيث الضوء الساطع من شمس الظهيرة يعشى الأبصار ، والظلمة الحالكة فى الليل البهيم تخلع الأفئدة . قد هجروا الأهل والولد ، وتركوا الحياة الناعمة المترفة فى أمريكا وراء ظهورهم ، عسى أن يكشفوا عن ينابيع للبترول قد تكون مطمورة تحت أديم بقعة من هذه الفلاة الموحشة .

قبلهم ، كان رواد آخرون قد سبقوهم إلى هناك ، فى شتاء سنة ١٩٣٠ ، ونقّبوا عن الزيت فى الشمال الغربى من نجد ، ثم مضوا يائسين من الصحراء ، بعد أن أذابوا فى رمالها الملتهبة أكداساً من المال مختلطة بالعرق من جهد ضائع .

فجاء هؤلاء على أثرهم يستأنفون المحاولة ، بأمل جديد . وكانت منطقة الأحساء ، شرقىّ نجد والدهناء ، وجهتَهم هذه المرة . فشقّوا إليها ما يقرب من ألف ميل عبر الصحراء القاحلة ، موفَدين من شركة « ستاندرد أويل » فى كاليفورنيا ، وهى الشركة الوحيدة التى قبلت الدخول فى هذه المغامرة وتمويلها ، سعياً وراء كنز مجهول المكان ، مشكوك فى وجوده وقيمته .

وفى اليوم الثالث من سبتمبر سنة ١٩٣٣ ، وصل مدير الشركة إلى الظهران بعد توقيع اتفاقية الزيت مع الحكومة السعودية . وجاء معه بالرجال والآلات للتنقيب التمهيدى ، وبدأ الحفر فعلاً فى آخر أبريل من سنة ١٩٣٥ .

° ° °

أكَبُّوا على تلك الرمال القاسية والصخور الجرداء ، يحفرون وينقبون ، بين قيظ يشوى اللحم ويصهر العظم ، وزمهرير يثلج البدن ويُجمد الدم ، منقطعين عن الدنيا نائين عن العمران ، يحيط بهم القفر اليباب من كل جانب ، وتراقبهم عن كثب عيون حديدة البصر ثاقبة النظرات . تحصى عليهم كل حركة وسكنة ، وترقب سير العمل فى حذر وارتياب .

تلك هى عيون العرب النجديين الذين التقى بهم الأمريكان وجهاً لوجه فى قلب الصحراء ، فكان صراع غيرُ سافر ولا صريح . .

° ° °

خمس سنين من الجهد المضنى والحياة الخشنة القاسية والعمل الكادح ، أذابت الرمال فيها خمسة عشر مليوناً من الدولارات ، قبل أن تبيح لهؤلاء الكادحين قطرة من ذهبها الأسود ، أو تأذن لهم فى لحظة من راحة وأمان .

خمس سنين ، قضاها أبناء الدنيا الجديدة فى مجاهل المنطقة ، يحفرون البئر بعد البئر وينتقلون من قفر إلى قفر ، والصحراء ضنينة بسرها ممسكة عن العطاء لا تقدم إلى ضيوفها الغرباء إلا القيظ والزمهرير ، ولسعَ الصخور وعواصف الرمال ، والوحشة والملال . ولا تكُف عنهم ملاحقة حرَّاسها الغلاظ الأشداء ، الذين أغضبهم أن تطأ أرض الجزيرة قدمُ كافرٍ من الفرنجة . .

لكن الباحثين عن الكنز ، كانوا يدركون أن اليأس هو عدوهم الألدُّ ، من ثم راحوا يحاربون هذا العدو فى أنفسهم ، ويخشونه أكثر مما يخشون حرامى الصحراء ووحوش الفلاة . . أما التعب والملل وشظف العيش وعسر الحياة ، فداخلٌ كله فى الحساب ، وهل كانوا يجهلون يوم نزحوا من أمريكا ، أنهم ملاقو هذا النصب كله ومثله معه ؟

• • •

وكانوا قد تعلموا فى مدارسهم ومعاملهم بالغرب الحديث ، ألا ينصرفوا عن متابعة التجارب ، بعد إخفاق الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة . . .

وأكبوا من جديد على الرمال الكاوية ، يحفرون البئرين السادسة والسابعة .

وكانت معركة ، تلاقى فيها جبروت العلم مع جبروت الصحراء ، فتم النصر للعلم : هنالك كشفت الصحراء عن سرها الخطير ، وأباحت كنزها مَن دأبوا على البحث عنه فى عزيمة صامدة ، وإرادة عنيدة لا تتخاذل .

وتجلت آية العلم فى صحراء الجزيرة التى أصغت من نحو أربعة عشر قرناً إلى كلمات الوحى الأولى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلَق »

فسبحت خاشعةً باسم الله الذى :

« علم الإنسان ما لم يعلم »

انتصر العلمُ وأثمر الجهد هذه المرةَ السابعة ، فأذاع البرق فى اليوم الثانى عشر من مارس سنة ١٩٣٨ نبأ حفر أول بئر للبترول فى الظهران من حقل الدمَّام الذى بلغت مساحته تسعة آلاف فدان ، وعمقه ٤٥٠٠ قدم . وعدد آباره اثنتين وثلاثين !

ثم توالت الأنباء من بعد ذلك معلنة فى الأعوام الأولى عن اكتشاف حقول :

أبو حدرية : سنة ١٩٤٠ وتُرك مُغلقاً .

بُقيق : سنة ١٩٤١ ومساحته سبعة وسبعون ألف فدان ، وعمقه إحدى عشرة قدما ، وآباره ثمانى عشرة .

القطيف : سنة ١٩٤٥ ، وعمقه سبعة آلاف وثلثمائة قدم ، وآباره اثنتان .

ومن ثم بدأ سيل الذهب الأسود يتدفق سخيًّا من ينابيعه فى جوف الرمال .

وعلى الرمال الملتهبة ، تحت شمس الصحراء المحرقة وفى قلب الفلاة المهجورة الموحشة ، قامت معامل ضخمة تدفع سيل الزيت فى أنابيب تمتد أميالاً إلى موانى الشحن والتفريغ على سواحل الخليج والبحر المتوسط .

ولم يكن التفريغ أمراً هيناً .

أما فى الخليج ، فحين جاءت ناقلات البترول إلى الدمام لتحمل هذا السيل الدافق ، عاقها هناك عائق من طبيعة الإقليم فلم تستطع أن تصل إلى الساحل عند الدمام ، ميناء الظهران ، لأن مياه الخليج هناك ضحلة قريبة الغور .

لكن العلم لم يعجزه أن يصل حافة الصحراء بقلب الخليج حيث ترسو الناقلات ، بل تقدم فبنى ميناء تمتد ثمانية أميال فى عرض الماء . .

وأما عن البحر المتوسط ، فكان على حاملات البترول أن تقطع ثلاثة آلاف ميل كى

تصل من معامل الزيت فى الظهران ورأس تنورة ، إلى موانئ الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، عن طريق خليج عدن والبحر الأحمر وقناة السويس . . وتقدم العلم فمدَّ خط أنابيب ، طوله ألف وسبعون ميلا فقط ، مبتدئاً من الأحساء ، ومتجهاً شمالاً بغرب إلى تل الحبر قرب حدود الأردن ، ومواصلا امتداده فى هذا الاتجاه عبر الأردن وسورية إلى أن يصل إلى ميناء صيدا ، من الساحل اللبنانى .

ويبلغ قطر الأنابيب فى هذا الخط ، ثلاثين بوصة . صُنعت بحيث تحتمل التمدد والتقلص من اختلاف درجات الحرارة ، ويستطيع هذا الخط الحصين أن يدفع إلى الميناء ثلاثمائة ألف برميل من الزيت ، كل يوم .

وازداد تدفق الزيت يوماً بعد يوم . وسجلت الإحصاءات الرسمية صعود الإنتاج من ٥٨٠ ألف برميل سنة ١٩٣٩ ، إلى خمسة ملايين سنة ١٩٤٠ ، ثم إلى واحد وعشرين مليوناً وثلثمائة ألف برميل سنة ١٩٤٥ ، ارتفعت إلى مائة وثلاثين مليوناً وتسعمائة ألف برميل سنة ١٩٤٨ [١] .

ومازال هناك آبار مغلقة لم تُستغل بعد .

* * *

ومع الزيت ، تدفقت الثروة ، فإذا بالصحراء القاحلة الماحلة الجرداء ، تجود بملايين الجنيهات كل عام ، نصفها للمملكة العربية السعودية صاحبة الكنز والأرض ، والنصف الآخر لشركة أرامكو صاحبة الامتياز [٢] .

وآن للمهاجرين المتعبين أن يظفروا فى تلك الفلاة الموحشة بحياة لعلها لا تقل عن حياتهم الأولى فى أمريكا رغداً وترفاً . ولحقت الأسر برجالها بعد أن غدت هذه المنطقة من صحراء الجزيرة عامرة غناء . .

* * *

هل خفَّ الصدام بين الشرق والغرب ، بين العرب والأمريكان ، بعد أن جادت الصحراء بعطائها ؟

---

(١) لمزيد تفصيل عن قصة البترول ، انظر كتاب : (المملكة العربية السعودية) تأليف كارل تويتشل ، ترجمة السيد شكيب الأموى و . طبع فى دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

(٢) جدَّ على الاتفاقية الأولى ، تغيير لشروطها وتعديل لحقوق المملكة ، ومازال الدول المنتجة للبترول تتابع جهودها فى سبيل عدالة التوزيع لعائد البترول .

كلا ، بل هو باق هناك ، وإن بدا للنظرة السريعة أن العهد به قد انتهى .

ويخطئ الذين يتوهمون أن الأمريكان قد غلبوا العرب على أمرهم : فما تزال العيون السود تلاحق أولئك الأجانب الغرباء . بنظرات ثاقبة ملؤها الشك والحذر ، ساهرة على حراسة تراث الجزيرة وتقاليد العرب وشريعة الإسلام ، من ذرائع الغزو .

ولا تكاد ساعة تمر ، دون أن تذكِّر الجزيرةُ هؤلاء الغرباء بأنهم أجانب ، جاءت بهم ضرورة اقتصادية ومدَنية تقدر بقدرها . ولا ينبغى لهم أن يتخطوا الأسوار التى بناها عاهل الجزيرة ، وأقام عليها الحراس الأشداء .

وهى أسوار تسمح للمدنية الغربية أن تعمر الصحراء وتجلب إليها ما شاءت من محدثات الأجهزة والآلات ، لكنها لم تسمح بتسلل غزو فكرى يمسخ أصالة العربى أو يفتنه عن إيمانه وتقاليده ، أو يستعمر أرضه .

فلا بأس على الجزيرة مثلا ، إذا هى استوردت أحدث الطيارات من مصانع الغرب ، لكنها لا تأذن لها فى أن تجوس أجواء الجزيرة . إلا بعد أن تطبع عليها شعارها القومى الدينى :

« لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

° ° °

فى نطاق هذه الحواجز يعيش الأجانب فى شبه عزلة ، لهم أحياؤهم السكنية الخاصة ، بمدارسها ومستشفياتها ومطاعمها ، لا يكادون يندمجون فى أهل نجد ، خارج منطقة العمل .

ويوم العطلة هناك الجمعة لا الأحد ، للعرب والأمريكان والأوربيين على السواء .

والتقويم الهجرى هو الذى تؤرخ به معامل أرامكو ومكاتبُها ، مثل سائر البلاد .

والتوقيت العربى هو التوقيت الرسمى : تشرق الشمس فى الساعة الواحدة ، وتغرب فى الثانية عشرة .

ومحظور بتاتاً ، أن تقام كنائس فى مهد الإسلام وجزيرة العرب ، وأن تدق أجراس ونواقيس ، حيث المآذن ترسل دعاء الإسلام من فجر المبعث .

ولا يؤذن لأى قسيس أن يطأ أرض الجزيرة لمهمة دينية ، فمن شاء من المسيحيين أن يتزوج رحل إلى البحرين مثلا ، ليعقد إكليل العرس .

وغير مسموح للمطاعم الأمريكية أن تقدم لروادها الخمر ولحم الخنزير ، كما يحظر على

(الكانتين الأمريكانى) عرض هذه المحرَّمات للبيع .

ويحتمل رجال الشرطة مسئولية أى مخالفة لهذه القوانين ، تقع فى دوائر عملهم .

مفروض على الأجانب أن يعيشوا هناك ، جنود تعمير لا دعاة استعمار .

وبهذا استطاعت الجزيرة حتى الآن أن تحمى استقلالها من سيطرة الدخلاء ، وإن تركت المدنية والعصرية تغزو الصحراء وتعبد طرقها وتضيئها بالكهرباء . .

وترنو الجزيرة إلى غد يستطيع فيه أبناؤها أن يسيطروا على الآلة ، وفى سبيل هذا الأمل المرجو ، فرضتْ على شركة أرامكو أن تنشئ فى الظهران مدرسة لتخريج صناع من أبناء العرب ، يدرسون أسرار الكهرباء والميكانيكا والتكنولوجيا ، ويوفد الناجحون منهم إلى أمريكا ليكون منهم المهندسون والخبراء والطيارون . .

ترى هل يستطيع هؤلاء الشباب أن يقاوموا فتنة الفرنجة فى أمريكا كما قاوموها فى الجزيرة ، حيث القوانين صارمة والحراس أشداء ؟

الجواب فى ضمير الغد ، عندما يلتقى هذا الجيل من شباب العرب بالأمريكان وجهاً لوجه فى قلب العالم الجديد ، كما التقى جيل قبله وجهاً لوجه ، فى قلب الصحراء . .

ثورة فى الصحراء

« وارزُقْهُم من الثمراتِ لعلَّهم يشكُرون »

على متن الريح فوق السحاب ، كانت رحلتنا ما بين جدة والظهران . وقد مضت بنا الطائرة تشق أجواز الفضاء وتطوى البيد والقفار ، ونحن نحدق من نوافذها الصغيرة فى الصحراء المترامية من تحتنا ، فلا نرى خلال ساعات أربع غير التيه ، تتدافع فيه أمواج الرمال المتقدة فى وهج الظهيرة ، وتتطاير ذراتها فتعقد من حولنا سحباً كالضباب ، يلف هذا القفر اليباب . .

أربع ساعات عبر المهمه الماحل الأجرد ، لم نلمح فيها أثراً لحياة أو معلَما لطريق ، ولا سمعنا سوى أزيز الطائرة وهى تتعثر فى كهوف الهواء . .

ونظرت إلى رفاق السفر فى الطائرة ، فإذا فيهم نفر من البدو ركبوا معنا متن الهواء وامتطوا جناح هذا الطير على بساط الريح . وإن فيهم من شق أكباد الإبل فى مسيره عبر هاتيك الفيافى التى لا تنفك فى مخيلتهم ملعباً للغيلان ومراحاً للوحوش . . وعطفتُ على بدويةٍ كانت تجلس أمامى فى عباءتها السوداء فسألتها : إن كان لها بركوب الطائرة عهد قبل اليوم ؟

فأجابت بصوت هامس ، حرصتْ على ألا يبلغ مسمع الرجال الأغراب :

– بل هذى أول مرة أخرج فيها من ديارنا ، وما عرفت قط غير الإبل مركباً .

قلت : فما ترين فى رحلة اليوم ؟

ردَّت من فورها : عجيبة والله ! وما أدرى أهى من فعل ساحر من مردة الجان ، أم يعيش فى زمننا هاذاك بقية من جند النبى سليمان ؟

ولما سألتُها بلغة البادية ، أين تحط رحالها ؟

أجابت بأنها لاحقة برجلها العامل فى (الكامب السعودى) بالظهران . فابتسمتُ للمفارقة الطريفة بين عبارتى البدوية : تحط الرحال ، واللفظ الحديث الدخيل : الكامب .

وحمل لنا مضيف لحماً طريًّا وخبزاً طازجاً شهيًّا وشراب الكولا والأناناس ، فأخذت

أرقب جارتى وهى لا تجرؤ على مس أقداح الشراب ظنًّا منها أنه من الحرام . . .

ولاحت لنا مياه الخليج أشبه بواحة فى الصحراء ، وحوَّمت الطائرة حول مطار الظهران وقد تناثرت فيه الحظائر والمبانى كأنها أعشاش طير ، وعلى أرضه كانت بضع طائرات جاثمة ، شبيهة بجراد منتشر .

ولبثت الطائرة نحو عشر دقائق تدرج فوق ساحة المطار ، قبل أن تستقر على مهبطها ، ونحن لا نكاد نصدق أننا عبرنا الجزيرة من جدة على ساحل البحر الأحمر ، إلى الظهران على ساحل الخليج ، فى ساعات ما بين ضحى وأصيل !

وتمثل لى آنذاك شاعرنا « طرفة » وهو يضرب بناقته فى الدهناء أياماً وليالى ، ورحت أسترجع أبيات قصيدته المعلقة ، فى وصف مطيته تلك الأمون الذلول !

هكذا من الناقة إلى الطائرة !

من الهودج ، إلى صالون داكوتا وبريستول ؟

من ماء الأمطار والآبار والعيون ، إلى شراب الأناناس والكولا ؟

ياله من انتقال سريع عبر هوة شاسعة ، فما عرفت الدهناء من قبل عربة أو سيارة ، ولا عهدت قطارا يجوس خلال دروبها ويمرق بين كثبانها ، حتى اليوم !

* * *

وكان مقامنا بالظهران فى غرفات عصرية من دار الضيافة ، وثيرة الفراش مضاءة بالكهرباء ، مكيفة الهواء لا نرى فيها شمساً ولا زمهريراً .

وليس بيننا وبين الصحراء بقيظ نهارها وصقيع ليلها ، سوى جدار بسيط تسفعه السافيات وتلطمه الهبوب .

أى ثورة وأى انقلاب ؟

لقد كانت هذه البيد لا تعرف من المساكن سوى الخيام المتنقلة تقام على العمد والأوتاد وتُشد بالأطناب . ولا ترى من الطعام سوى الخبز القديد ولحم الإبل ويابس التمر وماء المطر . أما الغرفات المبنية والنعم الطيبة فكان موعدهم بها فى جنة الخلد ، إذ المؤمنون « فى الغرفات آمنون » ، « لهم غرف من فوقها غرف مبنية » ، « وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون » .

* * *

هى آية العلم كشفت عن الكنز المخبوء فى أحشاء الدهناء وأعطت الثروة وبثّت الحياة فى

ذلك الخراب ، وحولّت التيه المرهوب إلى جنة فى الصحراء .

هذه آبار الزيت ، تدل عليها شُعَل حمراء ساطعة الذوائب ، تضىء هذا الظلام مؤذنةً بعهد جديد فى الدهناء التى طال ليلها وضل فيها الخيال ، ومذكرةً بنار القرى التى كان حاتم الطائى يأمر غلامه بإيقادها على جبال طيئ فى ليل الدهناء ، وبتلك النار الأخرى التى بات عليها « أعشى قيس » آكلا شارباً ، فى ضيافة « المحلق » وبناته ، ثم غدا ساعياً إلى الموسم وهو يترنم بأبياته المشهورات :

لَعمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوءِ نار باليفاع تحرَّقُ
تُشَبُّ لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

فرجَّعت أرجاء الجزيرة صدى صوته عبرَ قرون طوال من ليل الجاهلية ، حتى بلغ منا مسمعاً ونحن نتجول فى الأحساء ، منتصف القرن العشرين .

ومعالم العمران ماضية فى غزوها للصحراء ، تنجاب أمامها ظلال الأشباح التى طالما عمرت الدهناء والنفود والربع الخالى ، وتجولت طليقة بين النهدين والظهران . .

معلنة أن العلم قد انتصر على عناد الصحراء ، كما انتصر على غيرها من برّ وبحر ، وذلّل شوامخ الجبال الراسيات ، وسخر السحب واتخذ سبيله بينها سَرَباً إلى أعالى الفضاء .

وأنابيب الزيت تعترض سبيلنا هناك وهنالك ، ممتدة شرقاً من الدمام وبُقيق ورأس تنُّورة إلى البحرين على ساحل الخليج ، وشمالاً بغرب ، إلى صَيْدا على ساحل البحر المتوسط .

مسجلةً أن الإنسان قد اكتشف السرَّ الخطير الذى أجنّته أحشاءُ البيداء دهوراً وأحقاباً ، وأزاح كثبان الرمال والصخور عن منجم الذهب الأسود المطمور تحت أديم الصحراء . .